مقدمة

تعد تربية الطفولة والاهتمام برعايتها والعناية بها من أهم المعايير التى يمكن أن يقاس بها تقدم الأمم وتطورها، فالاهتمام بالطفولة جزء من الطبيعة البشرية التى تتباين بتباين المجتمعات فى درجتها ودورها طبقاً لتباين المستويات الاقتصادية والحضارية والثقافية بين هذه المجتمعات.

وترجع الأهمية لمرحلة الطفولة إلى أن هذه المرحلة تعتبر الأساس الذى تبنى عليه شخصية الطفل فى المستقبل، والقاعدة التى ترتكز عليها تربيته فى مراحل النمو التالية، فقد ثبت أن الكثير من المتغيرات والانحرافات السلوكية التى يقع فيها الكبار ترجع فى أغلبها إلى أخطاء التنشئة فى المراحل الأولى من حياة الطفل باعتبارها مرحلة التكوين والمرونة التى يتشكل فيها الطفل طبقاً للإمكانيات والظروف التربوية التى تحيط به.

ومن الملاحظ أن قضية رعاية الطفولة والاهتمام بتربيتها والحفاظ على حقوقها- ليست حديثة العهد، ولكن هذه القضية قديمة قدم التاريخ الإنسانى، وفى الحقيقة فإنه من الصعب القول على وجه التحديد متى بدأت التربية، فالتربية قديمة قدم الحياة ذاتها.

وإن كان البعض يرى أن التربية وجدت فى الأرض مع وجود الإنسان عليها، وهى وثيقة الصلة بالمجتمع التى تعكس فلسفته وأهدافه وظروف حياته وألوان نشاطه وقيمه ومعتقداته أى تعكس عموماً أيديولوجيته فى الحياة لتجعل الصغار يشبون على هذه الأيديولوجية فينضمون إلى حماتها من الكبار.

ومن الواضح أن العملية التربوية فى أية مرحلة تعليمية ترتكز على أسس تحدد أهدافها وترسم معالمها، وتبرز الإطار العام لها، وإذا كانت التربية خبرة

إنسانية، فإن فلسفة التربية هى تطبيق النظرة الفلسفية، والطريقة الفلسفية فى ميدان الخبرة الإنسانية الذى نسميه التربية.

وإنطلاقاً من ذلك، يمكن القول أن هناك علاقة بين الفلسفة والتربية، ولكن مدى هذه العلاقة يتفاوت من شخص لآخر، ويختلف من مدرسة فلسفية وتربوية إلى أخرى حتى أن البعض يرى أن التربية تابعة للفلسفة تتلقى منها الأفكار والنظريات وتقوم بتطبيقها وتنفيذها.

ويرى البعض أن الفلسفة والتربية صنوان متلازمان ووجهان لحقيقة واحدة هى سعى الإنسان الدائب من أجل حياة أفضل.

وقد أثبت كثير من الفلاسفة العلاقة بين التربية والفلسفة، فقد أكد « جون ديوى » على الترابط بين الفلسفة والتربية، فالفلسفة عنده هى النظرية العامة للتربية، كما أن التربية ليست إلا المختبر الذى تتجسد فيه الأفكار الفلسفية، لأن التربية عنده هى الوسيلة التى يمكن أن تحقق الأهداف الفلسفية.

وقد وضح بعض المربين العلاقة بين التربية والفلسفة على النحو التالى: أن التربية والفلسفة تشتركان فى الموضوع وتختلفان فى الوسائل. فموضوع التربية هو الإنسان ككل، والإنسان هو محور موضوعات الفلسفة، لكن وسيلة التربية عملية تطبيقية، أما وسيلة الفلسفة ففكرية تأملية، أى أن موضوع الفلسفة أكبر من موضوع التربية، أما وسائل التربية فأكثر من وسائل الفلسفة، لذلك فهما فى علاقة تفاعل مستمر، حيث أن الفلسفة فى حاجة إلى التربية كى تؤكد دورها كوسيلة تقوم بترجمة ذلك فى شكل عمل تربوى، والتربية فى عملها لا يمكنها السير بلا أهداف محددة، والتى يتم وضعها وفق أسس فلسفية تستند على اتجاه واضح محدد.

وأكد ذلك بعض المربين، حيث يرى أن الفلسفة هى التى توجه عملية التربية، كما أنها هى التى تحدد عدداً من الأهداف التى تنشد التربية تحقيقها، وهذا التحديد يقوم على أساس نظام للقيم، ومن هذا النظام تستمد التربية أهدافها، وهذه القيم تفرض على التربية المنهج والوسائل والأساليب.

ومن هنا تتضح أهمية الفلسفة فى تحديد معالم السياسة والأهداف التعليمية لأى نظام تربوى، فالتربية لا يمكن لها أن تنمو وتكتمل وتتواءم فى ميدان التطور، ما لم تستند إلى فكر فلسفى يغذيها بالجدية والابتكار والإبداع فى عالم يسابق العلم ومنجزاته للفكر وتطلعاته.

ولهذا فإن جميع المدارس والمذاهب الفلسفية تتضمن اتجاهات تربوية حيث إن الفلسفة بدون نظام تربوي أو مضمون تربوي تفقد ركناً أساسياً من أركانها.

ولما كانت مطالب تربية الطفولة ورعايتها في حاجة إلى رعاية عقلية ونفسية واجتماعية تتواءم مع طبيعة الإنسان، من هنا كان اهتمام المدارس الفلسفية المختلفة بتقديم وجهات نظر حول تربية الطفل من حيث الأسس التى تقوم عليها، والفلسفة التى تواجهها وتطبيقاتها.

ومن الملاحظ أن الرؤيا الفلسفية للطفولة قد تباينت، فمن الفلسفات ما نظر إلى الطفولة على أنها خبيثة وفاسدة وملوثة بالخطيئة الموروثة عن الأجداد والسابقين، وعلى العكس من ذلك فقد نظرت بعض المدارس الفلسفية إلى الطفولة على أنها خيرة وطاهرة، ولهذا فإن هذه الفلسفات لم تستند على أسس عملية مرضية بل كانت فى مجملها عبارة عن أفكار ميتافيزيقية يصعب تفسيرها، ومع ذلك فقد ظلت سائدة حتى القرن الثامن عشر، حيث لم تدخل الطفولة عالم الواقع الحسى إلا بعد ذلك التاريخ.

أما المفكرون المسلمون فقد أدركوا أهمية سنوات الطفولة باعتبارها مرحلة أساسية من مراحل حياة الإنسان ترسى فيها قواعد وأصول السلوك الصحيح. ومن هنا يلاحظ أن المفكرين المسلمين أولوا تربية الطفل عناية خاصة. حيث كانوا يطالبون إلى جانب الأوقات المخصصة للتعليم أن يتم تخصيص وقت معين للأطفال يقضونه فى اللعب والرياضة.

وبذلك يمكن القول أن الفكر التربوى الإسلامى أولى تربية الطفل عناية خاصة وما يؤكد ذلك ما يراه بعض المربين من أن الفكر التربوى الإسلامى شهد العديد من المفكرين الذين أسهموا بجهود تتفاوت فى قيمتها التربوية. فبحكم التقاليد الثقافية كان المفكر يمتد بفكره عبر مجالات متعددة ومنها التربية بطبيعة الحال.

يتضح من ذلك أن الأفكار التربوية الخاصة بالطفل ظهرت منذ أمد بعيد أى منذ ظهور الحضارات، وقضية الطفولة قديمة وعميقة الجذور فى تاريخ الإنسانية، كما يتضح أن هناك اهتماماً واضحاً من قبل المدارس الفلسفية المختارة، وأيضاً الفكر التربوى الإسلامى بتربية الطفولة. وإذا كان هناك شبه اتفاق على أهمية تربية الأطفال إلا أن هذه الفلسفات المتعددة والمختلفة قد تباينت فى اهتمامها بقضايا وجوانب تربية الأطفال المختلفة.

من هنا كان هذا الكتاب لتناول تربية الطفل من منظور بعض المدارس الفلسفية (المثالية، الواقعية، الطبيعية) والفكر التربوى الإسلامى.

د/ فتحى عبد الرسول محمد

أستاذ أصول التربية

بكلية التربية بقنا